رضى الله عنه مسلم يقف مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضى الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أسير لصحابى اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اشدد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصاتك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبى اليسر : هذا أخى دونك . كانت هذه هى الروح الإيمانية التى تجعل الفئة القليلة تنتصر على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تتغلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البنوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا يخور مؤمن وإن قل عدد المؤمنين ، أو قلت عُدّتهم،وحتى لا يغتر كافر ، وإن كثر عددُ قومه وعتادهم .

وقد جعلها الله آية للصدق الإيمانى ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هى التى تملأ نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة فى النفوس . ولماذا يتربص الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قتلوا أو ينتصرون على الكفار ، وفى ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد فى سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء فى الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يتربصون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدى المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جلية . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ

وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله فى تسليح نفسه ، وتسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فيأتى الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله ولإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » تعطينا فاصلا بين المتعة التى يحلها الله ، والمتعة التى لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هى شيء فوق الجوهر . فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تتزين ، فتكون زينتها شيئا فوق جوهر جمالها .

فكأن الله يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها ، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها ، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما .

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجدها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو الممقوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يَفْضُل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكِّن فحلاً آخر منها . والفحل أيضا إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول فى وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمية . ويا ليتها كانت شهوة بهيمية بالفعل ؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى ، لكن نحن فلسفناها ، إذن فخروجك بالشىء عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعا يسمى : دناءة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يُبقى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيما عليما . إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والتى أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . فقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان فى الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان،وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائما للعزوة كما يقولون ولا يأتى منهم العار ، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلا أو امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه أو إنها تريد ولداً ذكراً .

ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ، والقناطير هى جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن قدراً كمياً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن .

وكان علامة الثراء الواسع فى الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملأوه ذهبا ، وملء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطاراً ، وكانت هذه عملية بدائية . وبعد ذلك أخذوا ملء الجلد ذهباً ووزنوه فصار وزنا . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ، فصار ووزناً .

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من الذهب والفضة » فهو يريد أن يحقق فيها القنطارية ، وذلك يعنى أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن ، وليس مجرد قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دنانير مدنرة » . وعادة نجد فى اللغة العربية لفظاً يأتى من جنس اللفظ يضم إليه كى يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ، ويقال « ليل أليل » أى أن الليل فى ظلمة شديدة ، وهى مبالغة فى كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس عنك قد يكون حجاباً واحداً ، وقد يكون الشىء الذى يظلك فوقه شىء آخر يظلله أيضاً فيكون الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جميلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ، وورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبيعياً للهواء .

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيفة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يُظلل ظِلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة من القماش تُظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظَللة بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التى تظلل بعضها بعضا مختلفة الأوضاع ، وتعطى الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيام فهى تحجب النسيم . والشاعر حين أراد أن يصف الروضة قال :

تصبد الشمس أنى واجهتها

فتحجبها وتأذن للنسيم

إذن فحين وصف الحق القناطير بأنها مقنطرة فذلك يعنى القناطير الدقيقة الميزان ، وهى قناطير مقنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والفضة والخيل المسوّمة » . وكانت الخيل هى أداة العز وأمارة وعلامة على العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة)[1] .

قول الحق : « والخيل المسوّمة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة من المعانى ، فمسوّمة من سامها يَسومها ، ومعنى ذلك أن لهذه الخيل مراعى تأكل منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يُقدم لها فقط ، ومسوّمة أيضاً تعنى أن لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان أغرّ ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر .

ومسوّمة أيضا ، أن تكون مروضة ، ومدربة ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل أنها لم تكن مُستأنسة بل مُتوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى ينتفع بها الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسوّمة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قدر ما تشتهى لا على قدر ما نعطيها من طعام . ومُعلّمة أى فيها علامات كالغرّة والتحجيل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها معلمة أى مروضة . فماذا تتطلب الحرب ؟ .

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فيجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ، سواءً كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العزوة للبنين ورعايتهم ، أو كانت شهوة المال ؛ فالمؤمن ينفقه فى سبيل الله ، والخيل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء كلمة الله .

ونلحظ أن هذه الآية ـ التى تعدّد أنواع الزينة ـ جاءت بعد الآية التى تتحدث عن الجهاد فى سبيل الله ، والتى يقول الحق تبارك وتعالى فيها :

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يضحى بشهوته الحقيقية وهى إدراك الشهادة فى سبيل الله أو النصر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التى تتمثل فى النساء ، وفى البنين ، وفى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفى الخيل المسوّمة والأنعام . وقد قال الله عن الأنعام فى سورة الأنعام :

﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

حساب ذلك هو إثنان من الضأن ، وإثنان من الماعز ، وإثنان من الإبل ، وإثنان من البقر أى ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما قال البعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعنى اثنين من الشيء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن يشترط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « التوأم » ، إن التوأم هو واحدٌ معه غيره ، وهما توأمان ، وهم توائم إذا كان العدد أكثر من اثنين .

والحق يقول فى مجال زينة الشهوات : « زُين للناس حُبُّ الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » وحين تسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يُنبت لك أشياء بدون مُعالجتك فإنه يريد منك أيضاً أن تَسْتنبت أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهاجة الأرض ؛ فالتربه تكون جامدة ، فلا بد أن يهيّجها الإنسان بالحرث ، أى أن تفك يبوستها وتَلاصُقَ ذراتها ؛ لأن تَلاصُقَ ذرات التربة لا يصلح أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من الإنسان أن يُمهد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن تقوى .

إذن فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها ليِّنة مُتفتتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن الله قد أودع فى فلقتى كل بذرة مقوّمات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر فى النبات فإن الفلقتين تضمحلان ، وتصيران مجرد ورقتين . فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن أستطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة . ولذلك يقولون : إن الأرض الطينية السوداء تكون صعبة ، وغير خصبة ، ويقال : إن الأرض الرملية أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟.

لأننا نريد صفتين اثنتين فى الأرض : الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن يتخللها الماء ليشرب الزرع ، والصفة الأخرى ألاّ تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب بعيداً ، لذلك نحتاج فى الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أى أرض صفراء . والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجدّ ويحرث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

وعبّر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذى يُوجد الزرع . وكل ما تقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضحه الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، والفيصل هو أن الإنسان يخشى أن تفوته النعمة فلا تكون عنده ، أو أن يفوتها فيموت . وكل ما يفوتك أو تفوته ، فلا تعتز به . وعندما نتأمل الآية فى مجموعها نجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن منهج الله ، إنه سبحانه يقول :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نرى المفاتيح التى قد تجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله فى منهجه ، إنه ـ سبحانه ـ يطلب من عبده المؤمن أن يبنى حركة حياته على مراد الله ، فما الذى يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم يناقضه ؟ .

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذى يُميل ويُزيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح لهواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دَخْلَه من عمل أو صناعة مثلا فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء . وأناس مفاتيحهم الشخصية فى المال ، أو فى زينة الخيل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى .

والذين يدخلون على الناس ليُزيِّنوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذى يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تُغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب ، إنما يتملكه حبه لأولاده وهو الهوى الغلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . وحين يقول الحق أن هذه الأشياء هى المُزَيَّنة للناس . قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول نرد : إن الحق مادام قد قال : « زُيِّن » وبناها - كما يقول النحاة - للمجهول أى لما لم يُسَمَّ فاعله ، فمن الذى زيَّن ؟ لقد كان الله قادرا أن يقول لنا من الذى زيَّن تلك الأشياء تحديدا ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يُزيِّن لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون منطق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرقان)

إذن فما الفيصل فى تلك المسألة ؟ الفيصل فى هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملا يعمله الإنسان فيها ، فالمرأة إنما اتخذت سكنا أى ارتياحا عندها ، ارتياحا يعطيك كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الروم)

إن الحق يريد لنا أن يسكن الرجل إلى حلاله ، وتصرف المرأة الحلال عَيْنَيْ زوجها عن أعراض الناس . لكن ماذا فى الرجل الذى يُحب الأبناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد طلب زكريا عليه السلام وليًا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورِّثون العلم والحكمة ، إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمةَ منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضِيًا . فلو كان الأنبياء يورِّثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كي يرثه فى المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألاّ يُورِّثوا المال ، بل يورِّثون العلم بمنهج الله . وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض .

وكذلك الذى يريد الأموال لينفقها فى سبيل الله ، وكذلك الذى يريد الخيل ليروضها على الجهاد ، وكذلك الذى يريد الحرث ليملأ بطون خلق الله بما يَطعَمُون منه ، كل هؤلاء ينالهم المدح والثناء والجزاء الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتى من الله مُحتملا أن تتجه به إلى الخير المراد لله ، ومحتملا أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت ـ أيها العبد ـ حين تنظر إلى أى شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجِّهها وجهة خير . يقول الحق :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ من سورة الفرقان)

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ليرثوا المنهج السلوكى ويكونوا مثلا طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذى يحب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عيه وسلم أنه قال : (مِنْ خيرِ معاش الناسِ لهم رجل ممسك عِنانَ فرسه فى سبيل الله يطير على مَتنه كلما سمع هَيْعَةً[1] أو فَزْعَةً طار عليه يبتغى القتل والموت مَظَانَّهُ[2])[3] .

---

(١) الهيعة : كل ما أفزع من جانب العدو من صوت أو خبر .

(٢) مظانه : بفتح الميم والظاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية : أى يطلبه فى المحل الذى يظن وجوده فيه طلبا لمرضاة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث لأبى هريرة .

وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نُروِّض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مساراً للخير . وإياكم أن تفهموا أن الله يزهدنا فيها أو ينفرنا منها ، ولكنه يزهدنا أن نستعمل ما خلقه لنا فى غير مراده .

ولننظر إلى تعليق الله على الأشياء المُزيَّنة : « ذلك متاع الحياة الدنيا » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزينة نظرة تقليدية سطحية سيجدها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا الفانية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُصَعِّدُ فى عمله قيمة الخير،وتصعيد قيمة الخير يأتى من تنمية نوعه ، أى الزيادة فى نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى على عدة صور تبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، وضمان أن يحيا الإنسان للخير ويعيش له ، وألاّ يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألاّ تربط هذا الخير بأغيار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يغيب ، أو يغدر بك .

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تفعله يكون أرقى من خير آخر ، فنعمل دائما على زيادته وتنميته . والثانى : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للخير ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألاّ تربط هذا الخير بالأغيار . بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيل والأنعام والحرث فإنها ستعطيك متاع الدنيا . ولنسلم جدلا أن شيئا لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حىّ ، وأنها ستظل معك طيلة دنياك . فما قيمة الدنيا وهى مقاسة بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا قدرا محددا من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . هب أن هذه الشهوات من نساء ومال وبنين وخيل وذهب وفضة

وحرث وأنعام وعدة وعتاد قد دامت لك ، فما الذى يحدث ؟ إن الدنيا محدودة . ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك فلن يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن عمره فى الدنيا محدود .

وحياة الإنسان فى الدنيا لم يضع الله لها حداً يبلغه الإنسان . إن الله لم يحدد عمرا يموت فيه الإنسان ، ولكنْ لكل إنسان عمْر خاصٌ محدود بحياته ، فعندما يولد أى طفل لا تنزل معه بطاقة تحدد عدد السنوات التى سوف يحياها فى الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبهما لكل إنسان ، ولذلك يقال إن الإبهام هو أعلى درجات البيان ، الحق أخفى توقيت الموت وسببه عن الإنسان . متى يأتى ؟ فى أى زمان وفى أى مكان ؟ كل ذلك أخفاه فأصبح على المؤمن أن يكون مترقبا للموت فى كل لحظة .

إن الإبهام للموت هو البيان الوافى ، ومادامت الدنيا مهما طالت فهى محدودة وغير مضمونة للإنسان أن يحياها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة التى نحياها الآن ، إنّ اسمها « الدنيا » أى « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » وهى الحياة فى الآخرة . ولماذا هى « عليا » ؟ لأنها ستصعد الخير .

فبعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ، وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا ينقطع . ويضمن المؤمن أنه خالد فى الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ؛ لأن الخير إنما يأتى على مقدار معرفة الفاعل للخير . ومعرفة الإنسان للخير جزئية محدودة ، ومعرفة الله للخير كمال مطلق .

فالمؤمن فى الآخرة يتنعم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا هى الدنيا ، أى السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المنهج منا ألاّ ننخدع بالدنيا ، وألاّ ننقاد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع للكراهية للنفس ؟

إنه منهج سماوى يقود إلى حب النفس ؛ لأنه يريد أن يُصَعِّد الخير لكل مؤمن ، لقد بيّن المنهج أن فى الدنيا ألوانا من المتع هى كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة ولا تدوم لإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان فى النعيم الدنيوى محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات النعيم فى الآخرة فهى على قدر قدرة الخالق المربى ، فمن المنطقى جدا أن يقول الله لنا : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » . وحسن المآب تعنى حسن المرجع .

والحق حينما طلب منك أيها المؤمن أن تغض بصرك عما لا يحل لك ، فقد يظن الإنسان السطحى أن فى ذلك حجراً على حرية العين ، ولكن هذا الغض للبصر أمر به - سبحانه - إنما ليملأ العين فى الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله للمخلوق وهذا تصعيد فى الخير .

ولنفترض أن معك مبلغا قليلا من المال وقابلت فقيرا مسكينا فآثرت أنت هذا الفقير على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لتنال فى الآخرة ثوابا مضاعفا . إذن فقضية الدين هى أنانية عالية سامية ، لا أنانية حمقاء . ويوضح الله بعد ذلك حسن المآب بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾

وحين تسمع كلمة « أؤخبركم » فما نسمعه بعد ذلك كلام عادى ، أما عندما نسمع « أؤنبئكم » فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا فى الأحداث العظام ،

فلا يقول أحد لآخر : سأنبئك بأنك ستأكل كذا وكذا فى الغداء ، ولكن يقال « أنا أنبئك بأنك نلت جائزة كبرى » ، هذا فى المستوى البشرى فما بالنا بالله الخالق الأعلى ، ولذلك يقول الله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ﴾

(سورة النبأ)

إنه الأمر الذى يقلب كيان هذه الدنيا كلها ، فحين يقول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » فمعنى ذلك أن الله يخبرنا بخير من هذه الأشياء ، ومن ذلك نعرف أن الله قد جعل هذه الأشياء مقياساً ، لماذا ؟

لأنه مقياس محس ، وأوضح لنا كيفية التصعيد فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » ، والمؤمن هو من ينظر بثقة إلى كلمة « عند ربهم » أى الرب المتولى التربية والذى يتعهد المربى حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .

والعندية هنا هى عند الرب الأعلى . فماذا أعد المربى الأعلى للمتقين ؟ لقد أعد لهم « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ولنر الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا : إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ « الحرث » لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملاً .

أما فى الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن هذه الجنات تجر من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به : « خالدين فيها وأزواج مطهرة » إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسان .

والأزواج المطهرة هى وعد من الله للمؤمنين ، ومن يحب النساء فى الدنيا يعرف أن المرأة فى الدنيا يطرأ عليها أشياء قد تنفر ، إما خَلْقاً تكوينياً ، وإمَّا خُلُقاً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة ، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جمالها .

لذلك فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجي للمرأة في الدنيا ، وقد يقع الإنسان في هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها ، أما في الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أي مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذي طهرها ؟ إنه هو الله ـ سبحانه ـ طهرها خَلْقاً وَخُلُقاً . فالرجل في الدنيا قد يهوى إمرأة ، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتنافر . أما في الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شيء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيداً للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين :

الأمر الأول : هو جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونقارن بينها وبين الحرث في الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونقارن بينها وبين النساء في الدنيا أيضا ، ولم يورد الحق أي شيء عن بقية الأشياء ، فأين القناطير المقنطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزينين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتي في آخر الآية ، ولنقرأ الآية التي فيها التزيين : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث » .

إن البداية هي النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هي الحرث وذلك هو القوس الثاني ، وبين القوسين بقية الأشياء المزينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا إنهما هما الخير المُصَعَّد ، ولم يورد بقية الأشياء المزينة ، وهذا يعني أن نفهم ذلك في ضوء أن الرزق ما به انتُفِعَ ، أي أن كل ما ينتفع به الإنسان رزق ، الخُلُق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتي مرة مباشرا بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتي الرزق لكنه لا ينفع مباشرة ، بل قد يكون سببا ووسيلة لما ينفع مباشرة .

مثال ذلك الخبز ، إنه رزق مباشر ، والنقود هى رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب ، فلو قال واحد لهذا الإنسان : خذ رغيفا مقابل جبل الذهب . سيعطى الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للعطشان .

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره.فالوسيلة لغيره أنت لن تحتاج إليها فى الآخرة ؛ لأنك ستعيش بيدل الأسباب بقول الحق : « كن » . فالإنسان لن يحتاج فى الجنة إلى مال . أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهيه النفس ستجده ، ولن تحتاج فى الآخرة إلى خيل مسومة ؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه فى الآخرة من أشياء أعطاها لك الله فى الدنيا لتسعى بها فى الأسباب ، ولم يورده الله فى قوله : « قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يوردها فى النص الكريم ، لأن عطاء الله فى الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التى يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر فى الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها فى الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ . لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والخيل المسومة نحبها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد فى سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقق لنا المتعة .

أما الجنة فى الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، وكل ما يخطر ببال مَن يرزقه الله الجنةَ سوف يجده ؛ فالوسائط لا لزوم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأزواج المطهرة .

وعندما نتأمل قول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يكن من المنطق أن يخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أيخبرنا بهذا الخبر ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل ، وحنان الله على خلقه . إنه سبحانه وتعالى يقول لنا : ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تفضل تلك الأشياء التى تسيركم فى الدنيا . فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه . ولم ينتظر الحق أن نقول له . قل لنا يارب .

لا ، إنه يقول لنا دون طلب منا ، ويقال عن هذا الأسلوب فى اللغة إنه « استفهام للتقرير » ، « لإنسان حين يسمع : « أؤنبئكم بخير من ذلكم » فالذهن ينشغل ، فإن لم يسمع النبأ ، فلسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ . ويأتى الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن .

ويأتى النبأ « للذين اتقوا » ، فعندما نمعن النظر فى الشهوات التى تقدمت من نساء وبنين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث ، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه فى مجالها ؟

إن التقوى لله فى هذه الأشياء واجبة ، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة ، وأن يوقفوا الحياة على العبادة فى أمور الصلاة والصوم ، وأن نترك كل شىء . لهؤلاء نقول : لا ؛ إن حركتك فى الحياة تعينك على التقوى ؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية . فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها فى ضوء منهج الله فهذا هو حسن استخدام النعم .

وقد أوضحت من قبل أن التقوى حين تأتى مرة فى قول الحق : « اتقوا الله » وتأتى مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ، وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ، والعذاب من جنود النار . إذن فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا فى هذه الحياة لذات الزهد فيها ، ولكن للطمع فيما هو أعلى منها ، إنه الطمع فى النعيم الأخروى الدائم .

ويوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : أنكم لن تتمتعوا فى الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم - أيها المؤمنون - تحبون فقط أن تروا المنعم ، فمادام المؤمن الذى يدخل الجنة يجد كل ما يشتهى بل إنه لا يشتهى شيئا حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته .

وإذا لم يشته الإنسان ثماراً فى الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها « عليّون » و« عليّون » هذه ليس فيها شىء مما تسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إنّ الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة فى الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ؛ فالذى يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من الله .

إن رُضواناً من الله أكبر من كل شىء . ولقد نبأنا الله بما فى الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أنْ يظفر برؤية ربّه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

إذن فهناك فى الجنة مراتب ارتقائية . ويخبرنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد » أى أن الله سيعطى كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة فى النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه - سبحانه - تقول رابعة العدوية فى هذا المعنى:

كلهم يعبدون من خوف نار
ويرون النجاة حظا جزيلاً
إننى لست مثلهم ولهذا
لست أبغى بمن أحب بديلا

وقالت أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فادخلنى فيها ، وإن كنت تعلم أنى أعبدك طمعاً فى جنتك فاحرمنى منها ، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تُعبد .

إذن فـ « الله بصير بالعباد » أى أنه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته فى الحركة ؛ فالذى أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه . أما الذى أحب الله وإن سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مباهاة الله لملائكته . . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله . . إيثار محبة الله ورسوله على كل شىء فى الوجود :

عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يَقذف فى النار »[1] . إن هناك العبد الذى يحب الله لذاته ؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ؛ لأنه الوهاب ، الذى نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن فقوله الحق : « والله بصير بالعباد » يعنى أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته فى ربه يكون الجزاء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة فى الجنة ليأخذها ، ومن أطاع الله لأنه أهل لأن يطاع وإن أخذت ـ بضم الألف وكسر الخاء ـ النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً فى عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل . لماذا ؟ لأن ذلك دليل صدق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأتى منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه ـ وهو يعلم صبره ـ ليعطيه ثوابا جزيلا وأجرا كبيرا ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل جنة ربه وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة ـ الجنة ـ عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الحق قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة أَحَدٌ .

(١) رواه مسلم والبخارى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

إن قولهم : « ربنا إننا آمنا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكأن الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذى تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضى ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا ببشريتى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لى ما حدث لى فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

كأنك تستحضر الله فى كل عمل ، لأنه يراك .

وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترىء على محارم من يراه بعينه ؟ حينئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مأثور القول ، فكأنه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبادى إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل فى إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين إليكم ؟

وكأن الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسىء إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنا فاغفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا » .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان . لماذا ؟ لإنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا معناه أنه سبحانه قد علم أزلا أن عباده قد تخونهم نفوسهم ، فينحرفون عن منهج الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على ألسنة المؤمنين : « وقنا عذاب النار » لأنه ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لى بواسع مغفرته أن يستر علىّ الذنب ، فإن العبد قد يخجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأتى لنا أبدا ؟ وإن جاءت فهى محل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربى ، وعلمت أن ربى قد أذن بالمغفرة ؛ لأنه قال :

﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾

(من الآية ١٠ من سورة نوح)

فإن الوجل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بمحبة على تكاليفه وأحمل نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى فى المقابل والنقيض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من رحمة الله ، فماذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا الإنسان لأنه فقد الأمل فى نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر الواقع البشرى ، فإنه ـ سبحانه ـ يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لذعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن هذه اللذعة كلما لذعتهم أعطاهم الله حسنة .